ابو حيان التوحيدي

- ٣ -

كتابه ثمرات العلوم

قال ابو حيان في مقدمة هذا الكتاب : « أطال الله بقاءكم وأدام كرامتكم ، وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة ، وفوائده الكريمة ، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم ، اذا فازته الغنيمة منكم . وقد كان يقال من لم يغضب لنفسه ناصراً ، لم يغضب لبني جنسه منتصراً ، ومن لم يخف (لعلها يقف) عند العظيمة منتصفاً ، لم يرج عند النوائب مسعفا ، ومن لم يأنف من القذع في عرضه آبياً ، لم يبت على الخسف الا راضياً ، والغضب وان كان مذموماً عند بعض الخلال ، فانه محمود في بعض الأحوال ، وكما ان استمرار الغضب في جميع الأحوال ، نوع من فساد الأخلاق ، كذلك ايضاً الرضا في جميع الامور ، ضرب من ضروب النفاق . ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب ، كما انه لا بد من التردد بين الراحة والتعب .

« وقد كنت أحب لصديقي وجليسي ، ومن يأنس بمكاني ، ان لا يجعل اللجاج مطيته ، والمَحْلَ والمكر طويته ، فان ذلك أحسن له عند الله ، وأزين له عند الناس ، ومن بعد ذلك فاني لم أرد بلادكم من العراق مباهياً لكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم ، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم ، ولا تتبعت مساويكم شامتاً بكم ، بل وردت مستفيداً ومفيداً ، ومباحثاً ومستزيداً ، فما هذا الذي بلغني عن بعضكم على حسن توفري على صغيركم وكبيركم ، اما انه لو أنصف لعلم اني الى تسمحه ، أحوج مني الى تصفحه ، وهو بمجاملته اسعد مني بمجادلته ، وانا لاحسانه اشكرمني لامتحانه ، وهذا باب باطنه ظاهر ، وشاهده حاضر ، وخفيه جلي ، ولكن ما اصنع والشاعر يقول : « انما للعبد مارزقا » .

« ولعمري ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر والترادف والتناصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي هاجني لهذه الشكوى وأحوجني الى هذه العدوى قول قائل منكم : ليس للمنطق مدخل في الفقه ولا للفلسفة اتصال بالدين ولا للحكمة تأثير في الأحكام وهذا كلام من لو انعم النظر واستقصى الحال لوقف على ما عليه فيه وعرف ماله منه . فكان يستبدل بالخلاف وفاقا وبالمنازعة خلاقا عاب هذا الرجل المنطق وهجن طريقة الأوائل وزرى على الحكمة وفيل رأي الناظر فيها وقبح اختيار الباحث عنها وهذا كله ان لم يكن قله سوء تحصيل فانه يوشك ان يكون ضيق عطن وحرج صدر ومجازفة في القول وانحرافاً عن الصواب وامناً من الاعتقاب الخ . وربما نيل من عرض صاحبها وأنحى باللائمة عليه من اجلها وهو قلم لا يقصد الا الخير ولا اراد الا الرشاد وقد يؤتى الانسان من حيث لا يعلم ويرمى من حيث لا يتقي كما يؤتي من حيث لا يحتسب وينجو وقد اشفى ويدرك وقد غلب الناس » .

وعاد في آخر الرسالة وختمها بقوله يعتذر عن طولها : قد تكرر اعتذاري من طول هذه الرسالة وكان ظني في اولها انها تكون لطيفة خفيفة يسهل انتساخها وقراءتها فماجت بشجون الحديث وروادف من الطيب والخبيث فاقبل حاطك الله هذا العذر الذي قد بدأته واعدته ونشرته وطويته على انك لو علمت في اي وقت ارتفعت هذه الرسالة وعلى اي حال تمت لتعجبت وما كان يقل في عينك منها يكثر في نفسك وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك اه ...

وفي الحق ان رسالته في الصداقة والصديق قد حملت من آراء الناس الى عصره كل ما رق وراق من المنظوم والمنثور في موضوعه ولم يقتصر على حكماء الاسلاميين بل تعدى الى ايراد اقوال فلاسفة يونان . وفي الرسالة من رسائل الكتاب في هذا الباب ما هو مفيد على غابر الاحقاب . وقد ذكر ابا سليمان المنطقي وابا سعيد السيرافي غير مرة وروى عنهما ما دل على اعظامه لهما شأنه في مقابساته . ولا مراء في ان رسالة الصداقة والصديق مرآة صادقة تمثلت فيها افكار اربعة قرون في هذا النوع الصغير من الأدب . ولغة حوت مثل هذه الافكار وهذه المعاني هي ولا شك أغنى اللغات بادبها .

وهذه الرسالة على ما رأيناها كتبها بباعث لقوم لم يفهموا مقصده من العلم وتأولوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلامه فجبههم بما كتب وأجاد . وجميع كتبه على ما ظهر من النظر في المعروف منها مادعا الى وضعه دواع حافزة وامور جاش بها صدره فهي معمولة بالمناسبات لامتعملة ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التي نحسها ونلمسها .

نموذج من كتاب المقابسات

والمجمع العلمي البغدادي في القرن الرابع

من جملة كتب ابي حيان التي نجت من مخالب العدم وتناقلها الناس الى عصرنا كتاب المقابسات . واسمه صيغة تفاعل من قبسته او اقبسته علماً وخبراً اي ان كلاً اقبس صاحبه علماً وصاحبه اقبسه من علمه . ذكر فيه ابو حيان واكثره من محفوظه بعض ما وقع اليه من مفاوضات علماء مشهورين كانوا في بغداد يختلفون الى مجلس صديقه وأستاذه ابي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني وعنه اكثر مروياته فيتذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة او ما وراء الطبيعة والادب واكثرها على طريقة السؤال والجواب لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة وهذبت نفوسهم الآداب العالية يتناجون بالافكار الصحيحة والشاذة ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم .

والعلم هو الجامعة الكبرى بين البشر وكان فيهم المجوسي والصابيُّ واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي أمثال ابي زكريا يحيى بن عدي وابي الفتح البوشجاني وابي محمد المقدسي العروضي وابي بكر القومسي وعيسى بن ثقيف الرومي وابن مقداد وابي القاسم الانطاكي وكان يعرف بالمجتبى وابي محمد الاندلسي النحوي وابي اسحق الصابي والخوارزمي الكاتب ووهب بن يعيش الرقي وابن سوار ومانى المجوسي وابي الحسن محمد بن يوسف العامري وعبيد الكاتب والبديهي وابي اسحق النصيبي وابي علي عيسى بن زرعة المنطقي ومظهر الكاتب وابي الخطاب الكاتب وغيرهم « من كل من هو واحد في شأنه وفرد في صناعته » وكان مذهبهم في الفلسفة على الارجح مذهب ارسطاطاليس شأن معظم فلاسفة الاسلام أمثال ثابت بن قرة وحنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق واحمد بن سهل البلخي وابن مسكويه والقمي والسرخسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والنيسابوري . يطلقون في جلساتهم الخاصة عنان أفكارهم ويخرجون عن القيود الكسبية قاصدين الى هدف واحد وهو معرفة حقائق الاشياء مجردة لا تشوبها المؤثرات شأن علماء العصور الاخيرة من اهل الحضارة الحاضرة . واذا احببت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح اهل هذا العصر فقل هو محضر جلسات المجمع العلمي البغدادي في القرن الرابع وكان لا يحضرها الا من يدعى اليها ويوافق من اكثر الوجوه على ما يلقى فيها .

وهذه المجامع مثال ناطق بافصح بيان بان النصرانية لم تكن مضطهدة في العهد العباسي كما زعم بعضهم بل ان الاسلام كان دين الدولة والبلاد لاهلها فكانت بحكم الطبيعة كلمة المسلمين هي العليا وقد ساووا عامة اهل المذاهب بانفسهم الا قليلاً على صورة لم تصل اليها اكثر دول الحضارة الحديثة اليوم . وعلى ذكر هذه المجالس لا بأس بان نقول ان علماء العرب ما برحوا منذ الاعصر المتطاولة يتألفون ويتعاشرون في أندية لهم خاصة تجمعهم جامعة الاعمال العقلية فيتقاربون وان اختلفوا في مظاهرهم وقد لا يخليهم الزمن من موسع عليه من بينهم يفتح صدر مجلسه لهم يستطلع ظلع افكارهم ويأنس بهم ويأنسون به ويعطف عليهم ويعطفون عليه . وقد تكون مجالسهم ذات صبغة لها من اهل الدولة من يحميها او تكون للسمر واللعب واللهو ونعاطي اللذائذ . ومعظم ما اتانا الينا من اخبارها مفيد جد مفيد .

غلطات الترجمة والفرق بين الشريعة والحكمة وكلام في التصوف

سئل ابو سليمان المنطقي لِمَ لم يصفْ التوحيد في الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ كما صفا ذلك في الفلسفة فقال : انا لا نظن ان كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية افاضلهم وعرف حقيقة أقوال متقدميهم بل كان في القوم من رأى رأي العامة وحط الى ما حطت اليه ولم يبن منهم كثير شيء مع قدم الزمان ولقاء المحققين الفاضلين وهذا اذا حل لا يكون قادحاً فيما نصصناه من القول في حقائق التوحيد الذي ظفر به خلصان الحكمة وفرسان الصناعة . على ان الترجمة من لغة يونان الى العبرانية ومن العبرانية الى السريانية ومن السريانية الى العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قد اخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق اخلالاً لا يخفى على احد . ولو كانت معاني يونان تهجس في انفس العرب مع بيانها الرائع وتصرفها الواسع وافنانها المعجز وسعتها المشهورة لكانت الحكمة تصل الينا صافية بلا شوب وكاملة بلا نقص ولو كنا نفقه عن الاوائل أغراضهم بلغتهم كان ذلك ايضاً نافعاً للغليل وناجحاً للسبيل ومبلغاً الى الحد المطلوب ولكن لا بد في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الانسان عليها وخفايا لا يهتدي احد من البشر اليها وذلك للعجز الموروث عن الهيولى والضعف الثابت في الطينة الاولى وهذا لكي يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ومعاذاً للعالم .

قال ابوحيان لابي سليمان : ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة فقال : ما هو ظاهر لكل ذي تمييز وعقل وفهم وطريقتهم موسسة على مكابلة اللفظ باللفظ وموازنة الشيء بالشيء اما بشهادة من العقل مدخولة واما بغير شهادة منه البتة والاعتماد على الجدل وعلى ما يسبق الى الحس او يحكم به العيان اوعلى ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشإ وسائر الاعراض التي يطول احصاؤها ويشق الانيان عليها وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع وإسكات الخصم بما اتفق وإتمام القول الذي لا محصول فيه ولا مرجوع له مع بوادر لا تليق بالعالم ومع سوء أدب كثير نعم ومع قلة تأله وسوء ديانة وفساد دخلة ورفض الورع بتحمله والفلسفة ادام الله توفيقك محدودة بحدود ستة كلها تدلك على انها بحث عن جميعها في العالم : من ظاهر للعين وباطن للعقل ومركب بينهما ومائل الى حد طرفيهما على ما هو عليه واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله ومسموعه ومرئيه وموجوده ومعدومه من غير هوى يمال به على العقل ولا إلف تنفر معه جناية التقليد مع أحكام العقل الاختياري وترتيب العقل الطبيعي وتحصيل ما ند وانقلب من غير ان يكون اوائل ذلك موجودة حساً وعياناً وكانت محققة عقلاً وبيانا ومع اخلاق الهيئة واختيارات علوية وسياسات عقلية ومع اشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها ولا تبلغ اقصى مالها من حقها في شرفها .

ثم قال : وكان شيخنا يحيى بن عدي يقول : اني لأعجب كثيراً من قول اصحابنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا ضمنا واياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن ارباب الكلام والكلام لنا بنا كثر وانتشر وصح وظهر كأن سائر الناس لا يتكلمون او ليسوا اهل كلام لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت . اما يتكلم ياقوم الفقيه والنحوي والطبيب والمهندس والمنطقي والمنجم والطبيعي والالهي والحديثي والصوفي . قال وكان يلهج بهذا وكان يعلم ان القوم قد احدثوا لانفسهم اصولا وجعلوا ما يدعونه محمولاً عليها ومسؤولاً عن عرفها وان كانت المغالطات تجري عليهم ومن جهتهم بقصدهم مرة وبغير قصدهم أخرى .

قال ابو حيان رويت لابي سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال : لو قلت انا في هذه الطريقة شيئاً لقلت : الحواس مهالك والاوهام مسالك والعقول ممالك فمن خلص نفسه من المهالك قوي على المسالك ومن قوي على المسالك أشرف على الممالك شرفاً يوصله الى المالك . قال ابو الخطاب الكاتب : ايها الشيخ هذا والله أحسن من كل ماسمع منهم فلو زدتنا منه فقال : الحواس مضلة والاوهام مزلة والعقل مذلة . فمن اهتدى في الاول وثبت في الثاني أدرك في الثالث ومن أدرك في الثالث فقد أفلح ومن ضل في الاول وزل في الثاني خاف ومن خاف في الثالث فهو من الهمج . واستزاده مظهر الكاتب البغدادي فاستعفى قال : هذا حديث قوم ابعد منا على بعض المشاكسة ... الى ان قال : فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة وهذه الاسرار في هذه الطريقة اه .

على هذا النحو كانوا يمضون في احاديثهم فقد صرح احدهم بما يراه في التصوف لم يحط منه ولا من المنصرفين اليه وتناول آخر المتكلمين في غير ما تدليس وتأدب معهم والمتكلم غير مسلم وعلم الكلام خاص بالاسلام لكن العلم مشاع لاهل كل مذهب ولم يحمل كلامه على غير محمله وقال آخر في الفلسفة وامتدح من معاني اليونان وقال لو كتبت بالبيان العربي لكانت غيرها وهذه هي الحرية المطلقة ولولاها ما عاش علم صالح ولا انبعث عقل راجح ولا كانت حضارة هذه الامة مما ترتفع به الرؤوس ويقال فيها على الدهر لا عطر بعد عروس .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتابته الاشارات الالهية ومخاطبته النفس

قال في مقدمة هذا الكتاب : اللهم انا نسألك ما يسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وافعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبَلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً في رحمتك الواسعة ، نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وان كانت اعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، نسألك ان لا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة اليك ، يا حافظ الأسرار ، و يا مسبل الأستار ، و يا واهب الأعمار ، و يا منشئ الاخبار ، و ياموليج الليل في النهار ، و يامصايف الأخيار ، و يا مداري الأشرار ، و يا منقذ الأبرار من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ، وانعشنا عند تتابع صرعاتنا ، وحطة حالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وان لم نكن لانفسنا ، لانك اولى بنا ، واذا خفنا منك فابرح خوفنا منك برجائنا فيك ، واذا غلب علينا بأسنا منك فتلقه بالأمل فيك ....

ومن فصوله فيه : أيها المحاور ، والصديق المجاور ، كيف أنكلم والفؤاد هائم في كل واد ، والخاطر خال من كل جاد وهاد ، ام كيف اشكو والسر ظاهر باد ، ام باي شيء أتعلل وكل ما أجده مردد ومعاد ، ام على من أعتمد ، وكل احد اراه فهو لي ضد ومعاد ، انفاسي محترقة بالحسرات ، ودموعي مترقرقة بين النغمات والزفرات ، و كبدي مشتعلة على المناظر والهيئات ، ويقظتي جارية على الرسوم والعادات ، واحلامي غارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسي رهينة بالسيئات ، مفتونة بالحسنات ، بالسوانح والخطرات ، مغبونة عن الحسنات والصالحات ، الجهات دوني منسدة ، والوجوه أمامي مسودة ، ان قلت قيل هذا زور و بهتان ، وان أشرت قيل هذا غرور وعدوان ، وان سكت قيل هذا سهو ونسيان ، فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به ، رحمني مما لا غنى لي عنه ، او ليت من طردني عن بابه ، اهلني لعتابه ، او ليت من زجرني عن فراقه ، اخطر على بالي حلاوة لقائه ، او ليت من غمسني في بحر البلوى ، طرحني الى ساحل النجي ، او ليت من حطني عن درجة المخدومين رقاني الى مقامات الخدم ....

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال من رسالة ايضًا : حرام على قلب استنار بنور الله ، ان يفكر في غير عظمة الله ، حرام على لسان تعوّد ذكر الله ، ان يذكر غير الله ، حرام على نفس طيرت من أدناس الدنيا لله ، ان تدنس بشيء من مخالفة الله ، حرام على عين نظرت الى مملكة الله ، ان تحدق الى غير الله ، حرام على كبد ابتلّت بالثقة بالله ، ان تطمئن الى غير الله ، حرام على من لم ير الخير الا من الله ، ان يجدد طمعًا في غير الله ، حرام على من شرف بخدمة الله ان يتضع بخدمة غير الله حرام على من الف فناء الله ان يعرج الى غير الله حرام على من تلذذ بمناجاة الله ان يناجي غير الله حرام على من رتع في فقه الله ان يعبد غير الله ...

وأعجب من هذا ان يرمى من يقول هذا القول في العزة الالهية بالزندقة ويتهم بالمروق كأن كل هذا الاحسان لا يكفر سيئة لإنسان وكل هذا التقديس والتوحيد لا ينجي صاحبه من الوعد والوعيد والبشر غريب باطواره في جميع أعصاره .

وساق ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة فصولاً من كلام ابي حيان وعنن لها بقوله « ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة » وها كم نموذجًا منها وهي برهان آخر على توحيده وان نفسه كادت تتجرد من المادة والكثافة البشرية وتلحق بالملائكة وتنزل منازل الأبرار . وهذا هو وجه الغرابة في حياة التوحيدي جمع كل صفات العلماء ولم يفته شيء من فضائل النفس والدرس . قال : « اللهم اني ابرأ من الثقة الا بك ، ومن الأمل الا فيك ومن التسليم الا لك ومن التفويض الا اليك ومن التوكل الا عليك ومن الطلب الا منك ومن الرضا الا عنك ومن الذل الا في طاعتك ومن الصبر الا على بلائك واسألك ان تجعل الإخلاص قرين عقيدتي والشكر على نعمك شعاري ودثاري والنظر الى ملكوتك دأبي وديدني والانقياد لك شأني وشغلي والخوف منك امني وايماني واللياذ بذكرك بهجتي وسروري اللهم لتابع برك واتصل خيرك وعظم رفدك وتناهى إحسانك وصدق وعدك وبر قسمك وعمت فواضلك وتمت نوافلك ولم تبق حاجة الا وقد قضيتها او تكفلت بقضائها فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة انك اهل ذلك والقادر عليه والملي به .

ومنها اللهم اني أسألك جدًا مقرونًا بالتوفيق وعلمًا بريئًا من الجهل وعملاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عرياً من الرياء وقولاً موشحاً بالصواب وحالاً دائرة مع الحق وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدر وراحة جسم راجعة الى روح بال وسكون نفس موصولاً بثبات يقين وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة حتى تكون غايتي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل من حياة طيبة انت الواعد بها ونعيم دائم انت المبلغ اليه اللهم لاتخيب رجاء هو منوط بك ولا تصفر كفاً هي ممدودة اليك ولا تعذب عيناً فتحتها بنعمتك ولا تذل نفساً هي عزيزة بمعرفتك ولا تسلب عقلاً هو مستضيء بنور هدايتك ولاتخرس لساناً عودته الثناء عليك فكما كنت اولاً بالتفضل فكن آخراً بالاحسان الناصية بيدك والوجه عان لك والخير متوقع منك والمصير على كل حال اليك ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة وحلني في تلك الدار الباقية بزينة الامن وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائلة وأجرني على العادة الفاضلة ولاتجعلني ممن سها عن باطن مالك عليه بظاهر مالك عنده فالشقي من لم تأخذ بيده ولم تؤمنه من غده والسعيد من آويته الى كنف نعمتك ونقلته حميداً الى منازل رحمتك غير مناقش في الحساب ولاسائق له الى العذاب فانك على ذلك قدير .

مثال من كتاب البصائر

من أهم ما حواه كتاب البصائر مناظرة ابي بكر الصديق مع علي ومبايعته اياه وقد اقتبس العلماء هذه الرسالة ومنهم من غمز التوحيدي واتهمه بانه هو واضعها مثل ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محيي الدين بن عربي في المسامرات . وبعيد عن العقل عن ان يضع التوحيدي هذه الرسالة وهي بعيدة عن أسلوب كلامه وان أحب ابن ابي الحديد ان يشبهها به . اما التوحيدي فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال : سمرنا ليلة عند القاضي ابي حامد احمد بن بشر المروروذي ببغداد بدار ابي حبشان في شارع المازيان فتصرف الحديث بنا كل متصرف وكان ابو حامد معنا مفنناً مخلطاً مزيلاً [1] غزير الرواية لطيف الدراية له في كل جو

(١) المزين الذي يتصرف في المعاني والمفن الذي يتصرف في كل فن والمزيل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

متنفس وفي كل نار مقتبس فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة فركب كل منا مركبا وقال قولاً وعرض بشيء ونزع الى فن فقال ابو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة ابي بكر الصديق الى علي وجواب علي له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة فقالت الجماعة التي بين يديه : لا والله فقال : هي من درر الحقاق [٢] المصونة ومخبآت الصناديق في الخزائن المحوطة ومنذ حفظتها مارويتها الا للمهلبي ابي محمد في وزارته وكتبها عني في خلوة بيده وقال : لا اعرف على وجه الارض رسالة أعقل منها ولا أبين وانها لتدل على علم وحكم وفصاحة وفقاهة ودهاء ودين وبعد غور وشدة غوص . فقال له ابو بكر العباداني : أيها القاضي فلو أتممت المنة علينا بروايتها وسمعناها ورويناها عنك فنحن أوعى لها من المهلبي وأوجب ذماماً عليك الخ .

وبعد ان أورد التوحيدي هذه الرسالة العجيبة قال : روى لنا هذا كله ابو حامد ثم أخرج لنا اصله فقابلنا به فما كان غادر منه الا ما لا بال له فاما ما رواه لنا ابو منصور الكاتب فانه خالف في احرف في حواشي الكتاب كل حرف بازاء نظيره الذي هو مبدل منه وقد كان ابو منصور بلغة العرب أبصر وفي غرائبها انقد وانما قدمت رواية ابي حامد لانه بشأن الشريعة اعلم ولأعاجيبها أحفظ وفيما أشكل منها أفقه . وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بان الرسالة ليست من صنع ابي حيان وانها كانت معروفة قبله واذا ابى بعضهم الا ان يقول انها موضوعة كلها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدي بكثير وهي على كل حال لاتخلو من اصل ربما زيد عليه بايدي من أحبوا ان يقابلوا القوة بمثلها من اهل السنة وأرادوا نكاية الشيعة في كثير مما صنعوه فزادوا اموراً في هذه الرسالة وقعت بين الصحابة او تمثلوا وقوعها والبسوها ثياب العصر الذي نسبوها اليه .

والرسالة من جملة مايجب على الأديب ان يستظهره ويعيه لانها حوت من أساليب

بكسر الميم الرجل الكيس اللطيف يقال هو مخلط مزبل كما يقال هو رائق فائق والمراد به انه كثير المخالطة للناس والمزايلة لهم . (٢) الحقاق جمع حقة وعاء يحبس فيه الطيب والجوهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البلاغة كل جميل وفيها من الأمثال والحكم وضروب الدهاء والخلابة ما يعجب منه ولا تزال عليه مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد . ولولا خشية الاملال لأوردتها برمتها وهي في بضع صفحات عارضتها على الاصول التي ظفرت بها مطبوعة كانت او مخطوطة وعلقت عليها حواشي لغوية تنجلي بها معانيها الدقيقة المحجبة .

وهاك جملة قليلة من الرسالة قال ابوبكر الى ابي عبيدة : امض الى عليّ واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك ، واعلم انه سلالة ابي طالب ، ومكانه ممن فقدنا وبالامس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة والبر مفرقة ، والجوّ كلف ، والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والارض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف ، والعجب مقدحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب المداوة ، وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متميل بيمينه ، نافج [1] حضنيه لاهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الامة بالشحناء والعداوة ، عناداً لله ولرسوله ولدينه ؛ يوسوس بالفجور ، ويدلي بالغرور ، ويمني اهل الشرور ، ويوحي الى اوليائه زخرف القول بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد ابينا آدم ، وعادة له منذ اهانه الله عز وجل في سالف الدهر ...

ولقد أرشدك من افاء ضالتك ، وصافاك من احيا مودته بعتابك ، واراد لك الخير من آثر البقاء معك ، ما هذا الذي تسوّل لك نفسك ، ويدوي قلبك ، ويلتوي عليه رأيك ، ويتخاوص دونه طرفك ، ويستشري به ضغنك ، ويتراد معه نفسك ، وتكثر معه صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ، أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ، أدين غير دين الله ، أخلق غير خلق القرآن ، أهدي غير هدي النبي

(١) الصلعاء لا نبات فيها والجلواء المصحية وأغدف الليل أظلم والأكلف الأغبر والمفرقة من الفرق وهو الفزع والمغرقة يغرق فيه والعصوف الريح الشديدة والنسوف الطويل الشاق الذي ينسف صاحبه ومن المجاز بيني وبينه عقبة نسوف طويلة الشاقة والشجار ككتاب خشبة توضع خلف الباب والضغن العداوة والثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها والنافج الرافع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صلى الله عليه وسلم ، أمثلي يمشى له الضراء و يدب له الخمر ، ام مثالك يغص عليه الفضاء ، او يكسف في عينه القمر ، ما هذه القعقعة بالشنان [1] ، وما هذه الوعوعة باللسان ...

والآن قد بلغ الله بك ، وأرهص الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ماتسمع ، فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التجسس والتعسس ، لمن لا يظلع لك اذا خطى ، ولا يتزحزح عنك اذا عطى ، فالامر غض ، والنفوس فيها مض ، وانك اديم هذه الامة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحل أجاجا ، والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الامر فقال لي : يا ابابكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يرغب فيه و يجاحش عليه ولمن يتضاءل عنه لا لمن يشمخ اليه ولمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي والله لقد شاورني رسول الله (ص) في الصهر فذكر فتياناً من قريش فقلت له اين انت من علي فقال اني لأكره لفاطمة ميعة شبابه وحدة سنه . فقلت : متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بها البركة وأسبغت عليها النعمة مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء فقلت ماقلت وانا أرى مكان غيرك وأجد رائحة سواك وكنت لك اذ ذاك خيراً منك الآن لي ولئن كان عرّض بك رسول الله (ص) فقد كفى عن غيرك وان كان قال فيك فما سكت عن سواك وان يختلج [2] في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضي والصواب مسموع والحق مطاع ...

---

(١) افاء ارجع وتراد مثل تردد والتخاوص غض البصر مع الاحداق كأنه يقوم سهماً و يدوي به قلبك اي يفسد من داء والصعداء النفس العالي في الغضب والهم والضراء الشجر الملتف في الوادي والخمر الشجر الملتف ايضاً يقال للرجل اذا ختل بصاحبه هو يدب له الضراء ويمشي له الخمر والقعقعة حكاية اصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها والشنان جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس يُحرك للبعير ليفزع وفي المثل ما يقعقع له بالشنان يضرب لمن لا يخدع ولا يروع . (٢) يقال رهصني في الامر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فذلكة في حياة التوحيدي

أظننا بلغنا حاجة النفس في نقل صورة التوحيدي نقلاً ان لم يكن طابق الاصل فهو قريب منه بعد اقتباسنا دراً من كتبه ورسائله واستنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الخوالج وقلبه من النزوات وما تقلب فيه من البأساء والضراء وكيف لم تقعد به الهمة عن الاختلاف الى العظماء والاخذ عن العلماء فقتل المجتمع خبرة وعرف مكنونات الصدور . وعساكم بما سمعتم من كلامه قد تمثلت لكم سلامة الفكر والابداع فيه وسلاسة الانشاء وتجويده . أرأيتم هذا الايجاد الذي تقف عنده العقول حائرة يكتب صاحبه في العلوم المختلفة فلا تحونه لفظة وتتناسق الجمل في تركيبها تناسق العقد النفيس ويوائم بين ألفاظه ومعانيه اي مؤائمة ويؤثر في قلب السامع فيستميله بما يمليه من مقوله على مسمعه . أرأيتم كيف آضت اللغة في يد التوحيدي كالعجين يرسمه الرسم الذي يشاء او كالقرطاس في يد المصور الحاذق وعنده جماع الاصباغ يصوره بما تهفو اليه نفسه من صور الارض والسماء .

اللغة في نظر التوحيدي واسطة تعبير وتصوير لا أداة لطافة وظرافة كانت على أسلة لسانه وقلمه غزيرة المائية نضيرة الديباجة وكان بيانه الصافي البراق يسيل مطواعاً لبنانه يتصرف به تصرفاً غريباً ويصرفه في ضروب الموضوعات العالية .

استعجلني فيه ومن المجاز أرهص الله فلاناً جعله الله معدناً للخير . يقال فلان يعتس الآثار اي يقتصها و يعتس الفجور يتبعه . وقلص اردانك شمر اكمامك . والمض الألم والغض الجديد وظلع عرج وحلم الاديم والجلد اذا فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب وفي المثل كدابغة وقد حلم الاديم يضرب لمن يسعى في اصلاح امر بعد ان اوصله الفساد الى حيث لا يرجى اصلاحه . جاحش حامى ودافع يقال جاحش عن خيط رقبته اي نفسه وهو مثل قال الميداني اصله من الجحش الذي هو سمج الجلد يقال اصابه شيء فجحش وجهه اي قشره فجحش شقه الأيمن . ميعة الشباب اوله . والحوجاء الحاجة ومنه ما كان في نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء اي حاجة . واختلج تلجلج .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكأن اللغة في عصره أصبحت وقد استقرت علومها لغة حضارة باهرة اخذت الزبدة النافعة من الامم القديمة وزادت عليها تجارب قرنين فمرنت الفاظها على التعبير عن كل معنى وصفا رصفها ونسجها فكانت من أجمل صيغ الإفهام والانسجام ولطفت مادتها فخرج منها الحوشي بقاعدة بقاء الانسب ودرجت بعد ذلك نقية لا شوب فيها ولا تعقيد كأنها خلقت منذ عرفت لغة فلسفة وطبيعة والهيات كما كانت لغة شعر وخطب منذ أقدم عصور الجاهلية .

ذاكر التوحيدي في العلوم المختلفة طبقة عالية من أذكياء العلماء وكانوا في العلم جميعاً وفي مذاهبهم شتى فلم يجمد على نقل كلام اهل فن واحد ولا صمت أذنه عن سماع من خالفوه في معتقده فكأن شأنه شأن عالم في عصرنا فتح بحثاً في مجلة وكتاب يؤلفه وانشأ يجمع في كناشه وجزازاته افكار المتضادين ومراميهم في العلم والتفكر وهذا كان على حصة موفورة في كتب التوحيدي على ماراًينا خص لمعاصر به آراء المتقدمين وخلف لمن بعده صورة صحيحة من آراء من عاشرهم وعاصرهم وتقدمهم في الميلاد فأدركنا بما اسمعناه حقيقة عصره في أساليب التفكير ومبلغه من الحكمة .

ويحمد قصد التوحيدي في نقل كل مجلس على حقيقته وان كان بعضهم لم يرقه التعرض لتدوين مايخالف معتقدهم اما هو فما كان له ان ينقل كل كلام يرتضيه كل انسان لانه لا يحيط باهواء جميع الناس وتعدد الاهواء كتعدد الأنامي وهو مخالف في طريقته طريقة كثير من المؤلفين فكيف ينطق بلسان من لا يعتقده على صواب فيما يذهب اليه واذا رأى بعض المتحذلقين في كلامه بعض العهدة فيجابون واي كلام خلا مما يُتعلَّق عليه بشيء . ان التوحيدي لقي شيوخ العلم والحكمة فحمل عنهم وجوّد وصفهم واجمل طرازهم وكلما نقل شيئاً لا يوافق نحلةً ومذهباً قال خصوم فكره انه يصطنع نقله ويزوّر على رواته فيزوّرون له . كان راوية المجالس العالية والرواية كما قيل العلم المستطيل ومخالفوه يسوءهم هذا وينوءهم حتى سرت احكامهم الجائرة عليه الى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فأقروها وتابعوا على العمياء قائليها . خالف التوحيدي في طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء فبينه وبينهم بعد باعد وليس من الانصاف ان يأخذوا على النابغة خروجه عن مألوفهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحق ابلج لا يُخيل سبيله والحق يعرفه ذوو الاحلام

لا جرم ان التوحيدي حار في امره مع من وُسموا بالعلم في عصره وهم محافظون متشددون في تقاليدهم ومصطلحاتهم لا يبالون ان يرموا كل من ابدع طريقة وكشف عن حقيقة بالتفسيق والتبديع والتفكير ومن اسهل الاعمال عليهم ان يتقربوا من ذوي السلطان بضرب عنق من لا يدركون مغازيه ومعانيه ممن بذهم واربى عليهم. ويا لبؤس عالم لم يتخذ له يداً عند صاحب صولة في مثل ذاك المجتمع فان مجرد اتهام بعض المعتقدين له بانحلال العقيدة كاف في بترحبل حياته ولا من يرحمه او يتشفع به . اراد المأمون « رضي الله عنه وارضاه » اول المئة الثالثة ان يُخرج الامة من ربقة التقليد الاعمى الى ساحة العقل السليم فرأى ان يسيطر على الدين واللغة والآداب والعلوم بتسامح وتعقل ليس بعدهما غاية ولكن معظم مابناه تهدم بأفول نجمه ويا للاسف فلم ينشأ بعده للامة خليفة في وزنه وعياره يحمي العقل ودعاته ويفسح للباحثين مجال النقد والنظر .

ومن اعظم المصائب في تاريخ هذه الامة ان اقدار البلاد معلقة ابداً على الرأس الذي يدبر امرها خليفةً كان اوسلطاناً اواميراً متى زال تزول معه اوضاعه وتراتيبه وقلّ ان بنى الخلف على اساس السلف او سار المتأخر على قدم المتقدم خصوصاً في المسائل الذهنية والمطالب الاجتماعية والمدنية ولذلك كانت حضارتنا في كل عصر وقطر كالارض البقعة نباتها منقطع او كالواحات المتفرقة في المهمه القفر يختلف شكلها باختلاف البقعة التي نشأت فيها وتلبس ثوباً فُصل على عقل صاحب السلطان الاكبر وكثرة بلائه وغنائه . وقلما عهد ان سار الابن بسير ابيه وجده الا على عهد اوائل العباسيين وفي بعض دور الأمويين في الشرق والأمويين في الاندلس وما عدا ذلك فأفراد من اصحاب السلطان زانوا عصورهم بهممهم فأحالوا القفار جنانا وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطانا حتى اذا مضوا لسبيلهم عادت الامة سيرتها الاولى تثبت ان الأمية اعلق بشغاف قلبها لا سيما واكثر الزعماء يعتقدون ان الراحة في ترك العقول جامدة خامدة حتى لا يرتفع عقل عن عقل ولا يمتاز فاضل بعموم المفضل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالرجل الذي لم يأبه لما اعترضه من العقبات ومزّق حجب الوهم وحكم سلطان العقل واستعرض كالتوحيدي ما جادت به قرائح اعاظم الملة في القرون الثلاثة قبله وكتَبَ العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق حتى لا تلمح فيه اثر الصنعة ولا بشاعة التكلف وتسيغه وتستطيبه على كدورة في شرعته احياناً — فالرجل الذي كان كذلك حاله يعد النابغة المجتهد حقاً وصدقا .

كتب التوحيدي فاكثر من الكتابة وتآليفه جمة كما علمتم ومع هذا فانشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل فيما يكتب ولا عُني بالتنميق والتحبير والصقل والتطرية . وكان هدفه ابلاغ العقول ما يجول في الخواطر من أقصر الطرق واسهل المسالك تارة ومن اطولها تارة أخرى . اختص بوصف آراء المفكرين والنظار على وجه لم يؤثر عن غيره حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقة في ايراد الحقائق وتمثيل طبقات المجتمع ولا سيما اهل الذكر والفكر تمثيلاً يقربه من كل ذهن فكأنه تلقى باليمين ذاك الاسلوب الذي كاد يموت بموت الجاحظ واتمه بما حدث بعد ابي عثمان من فنون القول وضروب المعارف . ولو كانت روح التوحيدي غير معذبة بالاخفاق والإملاق كروح الجاحظ الشفافة البراقة وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه واطمأن بما تطمئن به روح من تهنأ العيش لجاء التوحيدي كالجاحظ حذو القذة بالقذة . بيد ان اضطراب عصره كان منه اضطراب فكره وغفلة العظماء عن تعهده وحمايته ادت الى اشتغال قلبه بزرقه وجرايته فكان في ذل الفقر وخوف القهر وقيد الأسر طول العمر . واذا قيل ان الجاحظ كان على دهاء لا ينكر محله فانقى بجر بزته لدغات حساده ومؤلمات مناظريه . وان التوحيدي لم يعرف سياسة العلم ولم يستكمل في حلبة الجهاد العالمي تعاطي الاسباب الى الرزق وإحراز خِصَل السبق فلا نأس ان الجاحظ كان الخلفاء يَرعونه و يُحيونه والوزراء يخادنونه و يَحبُونه والناس يعجبون به ويمجدونه . والتوحيدي يضطرب في حياته اضطراب الأرشية في الطوي البعيد كلما النفت يَمنة جاءت الصدمة يَسرة وكلما قال يسراً قالت الايام عسرا عاش في شظف من العيش وعجف من المال وكلب من الزمان فكان الموتور المفلوك الموجع القلب المعذب الفؤاد . وما المرء الا حيث وضعته بيئته وبها أوثي من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عقل سليم لا يخرج عن كونه محصول مسكنه وهوائه ومدرسته واساتيذه واقرانه وعنوان ما تأثر به روحه منذ وعى على نفسه وهو زبدة ما اخذه بالفطرة من دم ابويه واكتنهه من اتصاله باجداد قدماء قد لا يعرف اخبارهم على حين اورثوه من حيث لا يشعر أخلاقهم وأطوارهم .

محمد كرد علي